

التوبة النصوح.. رحمة إلهية لعباده



قال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في أدعية الصحيفة السجادية: «وإذا انقضت أيامُ حياتنا، وتصرَّمت مُدَدُ أعمارنا، واستحضرنا دعوتُك التي لا بدَّ منها ومن إجابتها، فصلِّ على محمدٍ وآله، واجعلْ ختامَ ما تُحصى علينا كِتَابَةَ أَعْمَالِنَا توبةً مقبولةً لا تُوفِّقُنَا بعدها على ذنبٍ اجتَرَحْنَاهُ، ولا مَعْصِيَةٍ اقْتَرَفْنَاهَا، ولا تَكْشِفُهُ عَنَّا سِتْرًا سَتَرْتَهُ على رؤوسِ الأشهادِ يومَ تَبْلُغُ أخبارَ عبادِكَ، إِنَّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعَاكَ وَمُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاكَ».

لقد خلقنا ﷻ تعالى في أكمل صورةٍ وهيئةٍ، وأروع الإبداع والتكوين، فله الحمد على ما صنع وأتقن من عجائب خلقه، ما نرى منهم وما نجهل ويغيب عن حواسنا، فلقد أعطانا ﷻ تعالى كلَّ ما يلزمنا من حواس وإدراكات ومشاعر تحوّلنا إلى موجوداتٍ حيّةٍ وفاعلةٍ ومتحرّكةٍ، وما أحسنها لو عملت هذه الجوارح وتحركت في خطٍّ طاعة ﷻ وبناء الوجود والحياة على الخير والصلاح. ولقد سخّر لنا ﷻ تعالى طيّبَات الرزق لنبقى أقوياء ونستطيع الاستمرار في الحياة، وكى نلبّي حاجتنا وشهواتنا بالطريقة التي أحلّها لعباده، وبما لا يخرجون في كلِّ ذلك من قضاء الحوائج إلى الانحراف والفساد والإفساد. كما سخّر ﷻ لنا ما في هذا الكون كي نزداد انفتاحاً على خلق ﷻ وعظمته، ونؤدّي حقوقه، يقول

تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) (النحل / 12)، ويقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) (الجاثية / 13)، فالإنسان يرتفع ويسمو من خلال حمد الله وشكره. والعبد الصالح المؤمن بربه يعرف معنى التوبة وقيمتها، إذ يقبل على ربه مخلصاً عابداً، تائباً من كل الذنوب والآثام، معاهداً ربه على الاستزادة من الحسنات والخيرات، ساعياً إلى نيل مرضيه. إنَّه التائب بقلبه من كل مشاعر الغفلة والاستغراق في عبث الدنيا، والمقلع عن السَّير في خطئ الفكر المنحرف. ومَن يرحمه الله يهد قلبه إلى التوبة النصوح التي تجعل المرء في مواقع الرحمة الإلهية التي يستحقها العبد من ربه، وتلك هي الذِّعمة الكبرى التي تمنح الحمد عنفوانه وروحه، لأزَّها تنقل الإنسان من غضب الله إلى رضوانه، وتهديه إلى طريق الجنة، وتبعده عن طريق النار، فهو الذي هدانا إليه ودلَّنا عليه بفضلِه وتوفيقه.

ولو نظرنا إلى طريقته في الأُمم التي سبقتنا في تقاليد التوبة وفرائضها، لعرفنا قيمة الذِّعمة الكبرى والفضل العظيم فيما أولانا من تسهيلها علينا، فقد وضع عنَّا ما لا طاقة لنا به من التكاليف الشاقة، ولم يكلِّفنا إلا بما يتحمَّله وسعنا. وهذا هو الذي يجعل الرحمة الإلهية للإنسان متَّصلةً بالبرنامج الروحي والعملي الذي وضعه الله له، ويسَّره لحركته، كما كانت متَّصلةً بالجانب الوجودي من حياته، وهو الذي يفتح له أبواب جنَّته، ويغلق عنه باب ناره، من خلال التوبة في إرادة التغيير، ومن خلال المغفرة في إرادة الرضوان. وفي انفتاحنا على نعمة الحمد والتوبة كلَّ الحياة، وفيه بعث لأرواحنا وعقولنا من سباتها وغفلتها.

وفي ضوء ذلك، فإنَّ التوبة لا تحمل معنى الهروب، بل تمثِّل معنى الإرادة الفاعلة التي تجعلنا نواجه الموقف بقوة، من خلال الطمأنينة الهادئة الآمنة بأنَّ الله قد ألغى لنا كلَّ ذنوبنا، وجعلنا ننتفح على يوم القيامة كمن لا ذنب له، فلا يوقفنا على ذنب اكتسبناه ليؤزِّبنا أو ليبتكتنا عليه، ولا معصية اقترفناها ليعذِّبنا عليها هناك عندما يقوم الناس لربِّ العالمين، ليبلو أخبارهم، وليفضح أسرارهم، ويكشف أستارهم. إنَّنا نتوسل إليك، وأنت الذي سترت علينا ما فعلناه، فلم تطلع عليه أحداً من هؤلاء الذين جعلتهم شهداء على خلقك، أن تديم لنا هذه الرعاية الإلهية، لتستر علينا في الآخرة كما سترت علينا في الدنيا، لأنَّنا انطلقنا من مواقع الخطيئة إلى مواقع التوبة.